# تساند الأدباء

اجتمعت بالأمس طائفة من فضلاء الأدباء في دار حليم أفندي دموس ولما استقر المجلس بهم أخذوا بينهم بأطراف الأحاديث فجرى لهم كلام في إحياء الأدب وتعاقدوا على التساند والتعاطف في مجامع أحوالهم ومختلف شؤونهم.

لا جرم أن للأدباء على المجتمع البشري فضلاً عظيماً؛ فقد يتم على أيديهم من جلائل الأعمال وعظائم الأمور ما لا يتم على أيدي غيرهم من الناس ؛ وهذا ما يحمل الأمم العريقة في الحضارة على المبالغة في تبجيل أدبائها أيام حياتهم وبعد مماتهم؛ فإنا وجدنا الفرنسيس ومن نشأ منشأهم في آفاق أوربا وأميركا لم يتركوا وسيلة إلى تعظيم رجال العلوم والفنون إلا توسلوا بها بحسب ما أعان عليه الامكان، وقد ذهبوا في هذا الأمر كل مذهب بعيد... فسمّوا كثيراً من سفائنهم وجوادّهم بأسماء أدبائهم ونصبوا التماثيل لعلمائهم وكتابهم وشعرائهم وأعلوْا صورهم في دور كتبهم العامة احتفاظاً بذكرهم على تراخي الأيام، والسبب في ذلك كله أن للأدباء كما سبقت الإشارة إليه فضلاً على المجتمع البشري... فإن الثورة الفرنسية التي مهدت السبيل إلى السلامة من استبداد الملوك وإيثار طبقة على طبقة إنما هي من خواطر الأدباء ونتائج قرائحهم... فلولا مونتسكيو وروسو وفولتير ومن هم في منزلتهم من بلغاء الكتاب لما وصل الفرنسيس إلى ما وصلوا إليه اليوم من اشتراك جماهيرهم عامة في تدبير الملك وتربيته فقد كان ملوك فرنسا في قديم الدهر ينفردون بشؤون الملك

دون أن يكون للطبقات العامة تصرف معهم في ذلك، فهاجت الخواطر من أجل هذا الاستبداد واضطربت العقول كل مضطرب حتى نشأ في فرنسا رجال من أهل الأدب بذلوا مجهودهم في تبديل الأوضاع السياسية والاجتماعية، وأذابوا مهجهم في هذا السبيل... ولما استفاضت كتبهم بين طبقات الشعب أخذ الناس أنفسهم باقتباس العلم من تضاعيف أساطيرها حتى تلبس ما تضمنته هذه الكتب بحواشي أفئدتهم واستحكمت في صدورهم محبة الحرية فانقضوا على ملكهم وخلصوا من شر الاستبداد والظلم، والفضل في هذا كله يرجع إلى الأدباء الذين انبثق ضياؤهم في ذاك العهد.

إذا كان لرجال الأدب مثل هذه الآثار في الخلق والبشر فمن العقل والصواب أن يكون لهم منزلة رفيعة تعادل فضلهم، وتناسب مآثرهم.

ومن موجب الأسف أن الأدباء في هذه الربوع ليس لهم من الحظوة ما لنظرائهم في الأصقاع التي اختمرت فيها آراء الرجال، والسر في ذلك أنهم لم يجتمع لهم من أسباب اليسار ما يجعل لهم شأنا في النفوس، وقدراً في العيون فهم فئة لم يتعطف عليها الدهر، ولا رقت لها الليالي، أو إنهم مالوا إلى الخيال الميل كله وزهدوا في المادة فقنعوا بالعيش بين أشباح خيالاتهم السوداء، وسواء عليهم أعبست لهم الأيام أم بسمت فإنهم يفهمون من السعادة معنى غير ما يفهمه الناس جميعاً.

أجل إن الأدباء لم يتهيأ لهم من المظاهر الخلابة ما يتهيأ لغيرهم من الطبقات العالية ولذلك فليس لهم في المقامات ما يستوجبونه من الأقدار لأن الناس في ديارنا قد ألفوا ظواهر الأمور دون بواطنها فلا يبالون برجل أديب، طيب الأخلاق مبالاتهم برجل موسر فاسد الطباع ولا يقلدون

أديباً من الأدباء عملاً جليلاً تقليدهم هذا العمل لرجل من الطبقات العالية الذي لا يعلم إلا الله بحقائق أخلاقه ومصادر ثروته.

هذي هي حال الأدباء... وهذا هو شأنهم في محتفلاتنا... فجدير بهم أن تكون هممهم مصروفة إلى التآلف والتضافر في كل مذهب يذهبون فيه، أو غرض يرمون إليه تقريراً لأقدارهم في العيون، وتمكيناً لدرجاتهم في الصدور.

والأمة التي لا تخرج مكنونها في تعظيم الأدباء تلك أمة لا ترحب بها أرض ولا تستبشر بها سماء.

**جريدة لسان العرب في ٧آذار ١٩٢١**

# النفاق في الوطنية

يصانع المرء في طائفة من أموره، فيتملق لأمير من أمراء قومه بديباجة وجه يخلقها، ويزدلف إلى سيد من سادات عشيرته بعزة نفس يبتذلها، فيجعل لكل واحد بسحر بيانه، وعذوبة منطقه من المحامد والمكارم مالا عهد له به، استجلاباً لشيء من نعيم الدنيا ونضراء الحياة، أو استصرافاً للمكاره عن نفسه.

بيدَ أن عاقبة مداهنته لا تحل إلا بواحد أو اثنين من البشر لا تجوزهما إلى غيرهما.

وينافق الإنسان في دينه وعقيدته فيلبس الصوف وقد انحنى ظهره وبدت عظامه لكثرة صلاته وصومه وما هو بالزاهد، ولا بالناسك وإنما حبس نفسه عن جرعة ماء ؛أو مزعة لحم لأمر يطلبه في دنياه، فإذا قضى لبانته استحال ثعلباً يؤذي برواغه، وذئباً يؤلم بختاله، غير أن مكره السيء لا يحيق إلا بنفسه فلا يتعداه إلى سواه.

ولكن الداهية الدهواء أن ينافق المرء في حب وطنه، فيلبس لبوس الذائد عن ربعه ؛ المانع عن جاره، فإذا جد الجد أورد وطنه موارد لا صدر عنها، سواء عليه أسلم قومه من الغوائل أم لم يسلموا، فهو لا يحفل إلا بمنزلة رفيعة يسمو لها، أو ثروة عظيمة يصيبها، فينال أذى نفاقه جماهير من الخلق لا يحصى عديدهم ويطيق مكره السيء بأهله ووطنه، فيغلب قومه على سلطانهم لنفاقه ومداجاته.

ضعفت محبة الناس في أصقاعنا للوطن ورجاله، وخالفوا جميل الاعتقاد في أمتهم ؛ حتى كأنما أخلقت جدة الوطن وأظلم ضياؤه، وتنكرت بشاشته، فصار حديث الوطن ثقيلاً على طباعهم، وطفقوا ينقبضون عن ذكر الوطنية وأشباه نغماتها، لما مر بهم في السنين الأخيرة من المشاهد التي أفضت إلىأرفضاض الدموع، وارتماض الصدور، فقد ظهر رجال شتى في هذا الآفاق جعجعوا جعجعة من غير طحن، أوعدوا فلم يوقعوا، ووعدوا فلم ينجزوا، حتى أصبحت كلمة الوطن ـ وهي أحب شيء إلى الإنسان من سائر الكلام ـ أقبح عندنا من كل قبيح، وأثقل من كل ثقيل، ولما حق علينا النضال عن الوطن والمراماة دون حياضه، تسلل كل واحد من الناعقين، فقبع في عقر داره ونفض يده من الجماعة بعد أن أصاب من المال ما أصاب؛ فعاش وهو آمن في سربه، معافى في بدنه، وما للوطن... سيان عنده عزه وذله؛ وكثره وقله.

ومن العجب العجاب أن يذهب الوهم إلى أن طائفة من الذين عاشوا على عهد الترك وغيرهم من الحكومات التي توالت على هذه الامصار حتى يومنا، فبجلوا كل دولة انبسط سلطانها على ديار الشام، وأثنوا على كل أمير امتد ظله إلى هذه الربوع، أقول من العجب أن يذهب الوهم إلى أن أمثال هؤلاء الرجال يخلصون الود لوطنهم، ويدفعون الضيم عن دياراتهم، على حين لم يعلق بقلوبهم حب الوطن من حداثة السن وغضاضة العود، ولا عرفوا اليسير من سيرة رجاله وأيامهم، ولا أحاطوا بالقليل من آدابه، ولا مر بخاطرهم تاريخ العرب في قديم الدهر وحديثه، وكيف يحب قوماً من لا يعرف مصادرهم ومواردهم، وأوائلهم وأواخرهم وكيف يدافع عن وطن مَن يجهل رسومه وآثاره، ومعالمه ومجاله؟ فهم يلجأون إلى النفاق في حب الوطن حرصاً على تقلد جلائل الأعمال، وطمعاً في الظفر بمراداتهم، ولوكان حبهم خالصاً لما نافقوا في

شؤون الوطن، وإنما يداهنك ويصانعك من ليس لك منزلة في قلبه، إذ ليس مع الاخلاص نفاق، ولامع المحبة رياء.

لاجرم أن حب الوطن أمر طبيعي في البشر، قال الجاحظ:

«ولو حولت ساكني الآجام إلى الفيافي، وساكني السهل إلى الجبال، وساكني الجبال إلى البحار، وساكني الوبر إلى المدر لأذاب قلوبهم الهم، ولأتى عليهم فرط النزاع،وقد قيل (عمر الله البلدان بحب الأوطان)، وقال عبد الله بن الزبير:

«ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم، وقال معاوية في قوم من اليمن رجعوا إلى بلادهم بعد أن أنزلهم من الشام منزلاً خصيباً وفرض لهم في شؤون العطاء: يصلون أوطانهم بقطيعة أنفسهم».

وقال رينان:

«يحب المرء وطنه حباً ملء جوانحه على نحو حبه لأهله وأسرته، وما حب الوطن في الحقيقة إلا نتيجة حب الأهل، إننا نحب الأرض التي شهدت ميلادنا، ونولع بالبقاع التي جالت فيها أوائل عواطفنا وذكرنا (جمع ذكرى) على نحو حبنا لأمهاتنا، فنحن نحب تربتنا لأن أجدادنا ولدوا وعاشوا فيها، وأصابهم أليم العذاب في جوائها، ففي أحشائها يهدأ رفاتهم، وتستقر عظامهم، فقد أورثونا نتائج خواطرهم ؛ وتقاليدهم وأخلاقهم وشرائعهم، دع عنك ما أورثونا إياه من عظمة سلطانهم التي وصلوا إليها بدأبهم في العمل وتساندهم فيه».

بيد أن هذا الحب في ديارنا قد أفسده تباين التربية وما أدت إليه من تفرق الأهواء واختلاف القلوب، وتنافر المذاهب، فإن كثيراً من رجالنا اقتبسوا علومهم في مدارس أجنبية، فأشربوا محبة القوم الذين أخذوا عنهم الآداب والعلوم، ونزعوا إلى التبجح بآثارهم وأخبارهم، وشغفوا بعلمائهم وكتابهم وشعرائهم وأصحاب المقامات منهم، فلم يبق في قلوبهم موضع

لحب أوطانهم وقبائلهم ولغتهم وآدابهم، وإذا كان الاعرابي في سالف الدهر يقيم بقبة من أدم، أو مظلة من شعر، أو خباء من صوف، أو بجاد من وبر، أو خيمة من شجر، أو قنة من حجر، يأكل الخبز القفار، والحنظل المبسل، وكأنه مقيم بإيوان كسرى، يحن إلى وطنه ويذود عن حوضه، فإنما ذلك ناشيء عن فطرته السليمة التي لم يفسدها شيء من محبته غير أهل البدو.

صدورٌ سليمةٌ وقلوبٌ باسلة، لم تفسدها الأهواء ولا خامرتها الأدواء.

أجل إن حب الوطن أمر طبيعي، ولكن ساءت تربيتنا في الأصل، فلم نتدرب على حب الوطن من الصغر، ولا عودنا أهلنا محبة ربوعنا، ولا قصّوا علينا أحسن القصص من آثار رجالنا، ولا وصفوا لنا شيئاً من غررهم وأوضاحهم، ولكننا نشأنا على محبة قوم ليسوا من قومنا، وفرحنا بعظمتهم وانبساط سلطانهم، وارتضخنا لكنةً أعجمية في أحاديثنا، ونريد بعد هذا أن نشبه عباد الله.

مظاهر الوطنية شتى، فالشاعر الذي يبث العواطف القومية في النفوس مخلص لوطنه، والكاتب الذي يضيء ظلماء العقول ويكشف غماء القلوب مولعٌ بقومه، والجندي الذي يذود عن حياضه متعلق بأهداب أمته، والغني الذي يفضل على الفقير نافع لوطنه، فليست الوطنية في الجعجعة من غير طحن، ولا في تزوير الكلام وترقيشه، إذ أن العقول قد تنبهت في هذا الدهر فلا يبلغ منها خداع المخادعين مبلغاً، وإنما الوطنية في العلم بمنافع الوطن والعمل على إعلاء شأنه والجود بالأموال والمهج في سبيله.

**جريدة المقتبس في ٦ أيلول سنة ١٩٢٣**

# هواجس

في صحف الإنكليز أنباء كثيرة عن سياحة ولي العهد في أصقاع الهند ومالطة، فقد صور الانكليز أميرهم في صورة رجل يجالس الناس ويخالطهم في ألاعيبهم الرياضية كأنه ليس من ملوك الأرض وسلاطينها، ولم يرسخ في نفسه أن هذا الأمر مسقطة له من أعين القوم فهو يقفز ويثب على نحو ما يفعله جماعة اللاعبين من غير أن يثبت في ذهنه أن هذا اللعب يفسد عليه رونق الملك في مستقبل الأيام.

وفي صحف الفرنسيس أن مملكة اليابان قد جوزت للأمير هيروهيتو ولي عهد الميكادو أن يضرب في أعطاف أوروبا ليقتبس من حضارة الغرب، ولهذا الأمير صور شتى تدل على أنه يتدرب في السفائن الحربية على إطلاق القنابل.

ملوك وأمراء يملكون طول الأرض وعرضها يمتزجون بالعامة ويطارحونهم فنون الأحاديث والكلام كأنهم ليسوا من الذين تنقاد إليهم جماهير الشعوب.

وفي هذا الشرق رجال تقبل عليهم دنياهم بعض الاقبال ويتقلدون شيئاً من أعمال الحكومات فتذهب الكبرياء بهم مذهبها وتميل العظمة بهم ميلها فيأنفون من مخاطبة الناس كأنهم من أفق غير أفق البشر... ولو سبرت أعماق قلوبهم لتبين لك أنها لا تنطوي إلا على احتمال الأذى وقبول الضيم.

* * *

قرأت في صحف فرنسا أن طائفة من كتاب الانكليز يطعنون في فرنسا كل مطعن لأنها صدفت عن حماية النصارى في كيليكيا، وهم يوحون إلى الفرنسيس أن ينقضوا ما تم بينهم وبين الترك من التعاقد والتحالف، وقد رست في هذا الأيام منسفة أميركية في مرسين للدفاع عن النصارى في مقتضى الحال فشرعت الصحف الانكليزية تحيي هذه المنسفة تحيات طيبات وترجو أن تنسف تعاهد الترك والفرنسيس مع محافظتها على الأرمن واليونان.

قرأت هذا النبأ فذهب وهمي إلى أن الحرب واقعة بين فرنسا وانكلترا لا محالة، وأن التقاطع مستحكم بين الأمتين.

ثم أخذت عيناي مقالاً عنوانه: كيبلنغ وفرازر وهما كاتبان من بلغاء الكتاب في انكلترا قدما باريس فاستقبلتهما جامعة باريس أحسن استقبال، وبالغت في إكرامهما أفضل المبالغة وقد أدبت لهما مأدبة حضرها مائتا رجل من أهل العلم والأدب والفن والسياسة وفي جملتهم رئيس الجمهورية ووزير المعارف وقد جرت في هذه الدعوة خطب شتى أفصح أصحابها عن تعاطف الأدباء والعلماء في فرنسا وانكلترا.

فرغت من هذا كله وكان قد وقر في نفسي أن رجال فرنسا وانكلترا لا تأتلف كلمتهم سجيس الليالي لتطاعنهم في الصحف، بيد أني رجعت عن معتقدي وعلمت أن للأدب سراً في القلوب وسلطاناً في النفوس فهو الذي يجمع بين الصديق والعدو، ويقرب بين القاصي والداني مهما فرقت بينهما مذاهب السياسة، وشردت بهما حفائظ الأخلاق.

ولكننا معاشر الشرقيين قد دب التحاسد بين أدبائنا، وقل فينا التآلف والتساند فإذا نبغ فينا شاعر أو كاتب تجهز أمثاله للغض من قدره والتقبيح لأمره حتى لا تكون له منزلة بين الناس. «ولله في خلقه شؤون».

* * *

شعراء البولشفيك في هذا العصر ثلاثة وهم: بلوك وبجلي وما جاكو فسكي.

أما بلوك فإن شعره مشتمل على تصوير ألم النفس، وترددها في كل موطن واسترابتها بكل أمر... وقد وصف في ديوانه محاسن الثورة وذكر الذين حملوا اللواء الأحمر والسيد المسيح يهديهم سواء السبيل.

وأما بجلي فقد ذهب في نتائج خواطره إلى أن روسيا أنشأت للعالم ديناً حديثاً وشريعة جديدة وأنها تستأنف ما شرع فيه السيد المسيح من ألفي سنة.

وأما جاياكوفسكي فهو شاعر البولشفيك غير مدافع فقد أفرغ ثمرات قرائحه في قوالب من الفن المستحدث وهو من الذين يزهدون في طرائف الفنون ويستنهضون الناس لتدمير المتاحف وهذه جملة من شعره:

تمهلوا أيها الخطباء! فصل الخطاب للسلاح!

كفانا أن نعيش على نحو ما عاش عليه آدم وحواء!

اهدموا ما بناه البشر!

تياسروا! تياسروا! تياسروا!.

**جريدة المقتبس في ٨ كانون الأول سنة ١٩٢١**

# الأضاحي

سولي برودوم شاعر من شعراء فرنسة ولد في باريز سنة ١٨٣٩ ـ ١٩٠٧، يذهب في شعره إلى الإفصاح عن دقائق العواطف ويعمد إلى الفلسفة، وقد صور في شعره الفلسفي أشرف مشاغل الفكر، ومن تصانيفه «المعدلة» و«السعادة» وغيرهما.

لسولي برودوم قصيدة عنوانها «المخاضة» وصف فيها حالة جند قد أعيتهم غمرات الحرب،فوصلوا إلى نهر، واستلقوا في ضفته على أقفائهم وهم مضرجون بدمائهم. ولهم رئيس قد سهر والجند نيام، وأنه لكذلك إذ أبصر الروس زاحفين إليه، فأيقظ جماعته واستحثهم على الفرار من الروس. فاستفاق الجند والنوم آخذ بمعاقد أجفانهم، وخاضوا النهر فنجوا من العدو بقضهم وقضيضهم: ما خلا رئيسهم فقد أدركه الروس ولم ينج، فأقبلوا عليه وسألوه عن قعر النهر الذي اعترضهم، وقذفوا به إلى لجج الماء ليسبر لهم قعره. فخاض الرئيس الماء وهو يعلم أن غوره قريب لا تغوص فيه إلا ركبتاه. فما زال يغطس في الماء ليعمي على العدو مقدار غوره حتى وصل الماء إلى صدره، فبلغ إلى جوفه وأخذ بمخنقه فمات... فأيقن الروس أن النهر بعيد غوره، فنكصوا على أعقابهم. وسلم جماعة الرئيس.

* * *

لو أن الايمان بالوطن تجسد ثم تصور لكان هذا الرئيس صورة له، فقد تمكن من سويداء قلبه حب الوطن، فآثر الموت على الحياة في سبيل دياره وربوعه، على حين كان يستطيع الافلات من العدو والهرب في مقدمة الهاربين، إلا أن حرصه على قومه ووطنه قد حمله على أن يكون في خاتمة المتقهقرين... وقد كان يستطيع أن يخوض النهر ويمهد للعدو سبيلاً إلى اجتيازه فينجو من الموت إن لم ينج من حمل القلائد في عنقه... غير أنه استعذب الهلاك حتى يعيش رهطه في ظلال الحرية فلا يسومهم العدو خطة خسف.

قتل النفس في سبيل الوطن عقيدة من أشرف العقائد في كل دهر وصقع. فلو زهد كل واحد من الأمة في نفع وطنه وقومه. وقال في نفسه: مالي وللوطن. لكانت الربوع غنماً من أصحاب الحول والطول. ولقمة لكل لاقم من أهل البطنة والشره.

لا تسلم الأمة من الأذى حتى يستبسل أبناؤها في سبيل سلامتها إذْلا بد من إبر النحل دون الشهد... ولا مندوحة عن التعب في سبيل المجد. فكل أمر من معالي الأمور يستوجب الكثير من المغامرة والتقحم... فقد كان العلم في الماضي لا يستفيض حتى تذوق طائفة من حملته شيئاً من المرارة في استفاضته... فالذين يموتون في الذود في حياضهم ويتركون الحياة في آفاقها لمن يخلفهم من الرجال. والذين يذوقون مرارة العلم ويتركون حلاوته لمن يعقبهم من العلماء هم طبقة من البشر قد سمت أخلاقهم وطابت أعراقهم... فكأنهم من أفق غير أفق الناس.

* * *

من تصفح تاريخ العلم في القرنين المتأخرين تبين له أن طائفة عظيمة من أماثل العلماء أمثال: غليلة، وديكارت، وفزال ودي باليس، وميخائيل سرفه، وهارفي، وباكون، وامبروازباره، وكيرشر، وكبلر، وكوبرنيك،

وسزالبان، قد أصابهم من الأذى والعذاب في سبيل عقائدهم ومذاهبهم ما لو أصاب غيرهم الناس لعافوا الحياة وبهجتها.

هذا غليلة!

العالم الرياضي الذي شهر أمره في الطبيعيات وعلم الفلك، وهو من علماء إيطاليا، كان جمهور المتعلمين قبله يعتقدون أن الأرض هي مركز العالم، فجاء غليلة وأعلن أن الشمس هي مركز السيارات، وأثبت أن الأرض تدور حولها كما تدور سائر السيارات التي تعكس ضياءها، فأثار مذهبه هذا كامن الحقود، حتى غضب عليه في جملة من غضب رجال الملك في روما وأعلن جماعة الكنيسة أن مذهب كوبرنيك بدعة محرمة، وتهددوا غليلة، ولما عاد إلى فلورانس جمع في كتابه كل الأدلة التي تؤيد معتقده، فوقع الكتاب إلى ديوان التفتيش، فأكره غليلة وغمره سبعون سنة على الركوع بمحضر رجال التفتيش والقول ببطلان مدعاه، وعلى أثر ذلك جعلوه في شبه سجن، وتشددوا في مراقبته فمات وهو أعمى، ومن كلامه المأثور في خلال تعذيبه «ومع هذا فإنها تتحرك» يعني بذلك الأرض.

وهذا ديكارت!

الفيلسوف الفرنسي، وقد علت منزلته في الطبيعيات والهندسة وله مذاهب علمية مشهورة وتصانيف رائعة، قد صدرت عن روية طويلة فهي أساس العلوم النفيسة في هذا العصر.

نفي عن بلاده فتوجه نحو استوكهولم ومات في بلاده السويد بعد أن عاش عيشة جندي وعالم طبيعي، وفيلسوف وطبيب متهاوناً بحياته.

وهذا فيزال!

وهو أكبر علماء التشريح في القرن السادس عشر... ولد في بروكسل عاصمة بلجيكا. وذهب إلى باريس ومنها إلى بولونيـة ثـم إلى بـيزو، وقـد عزيت إليه جناية فأجبر على الحج إلى الأرض المقدسة فمات جوعاً.

وهذا برنار دي باليسي!

كاتب وعالم فرنسي... وهـو مـن حـذاق المكتشـفين ومـن مؤسسـي طبقات الأرض، ومتفنن من أكابر المتفننين، برع في صناعة الأواني البديعة المزوقة بالتصاوير، وقد قبض عليه سنة ١٥٨٩ لأنـه كالفـاني ـ نسـبة إلى كالفان ـ وجعل في الباستيل حيث سمم فمات.

وهذا باكون الكبير!

وهو فيلسوف إنكليزي ولد في لوندره فقـد حكـم عليـه أن يسـجن، وأن يدفع مقداراً من المال، وكانت نجاته من أهل النمائم أمراً عجابا.

وهذا كوبرنيك!

وهو فلكي بولوني مشـهور، أثبـت حركـة الأجـرام السـماوية حـول ذاتهـا وحـول الشـمس، فلـم يقبـل البابـا هـذا المذهـب لمخالفتـه الكتـاب المقدس، ولم يجرأ كوبرنيك على إذاعة تآليفه البارعة إلا في خاتمـة حياتـه، ولم ير كتابه مطبوعاً إلاّ يوم موته.

وهذا كبلر!

وهو فلكي ألماني، عكف في مقتبل شبابه على اقتباس العلوم الرياضية، واشتغل بها كل حياته، وله قوانين في الفلك خاصة تنسب إليه، عـاش في ضنك وخشونة من أجل آرائه.

وهذا سزالبان!

وهو عالم إيطالي من علماء الطبيعيات وفيلسوف وطبيب، وهو أول من عرف الأجناس في الأزاهير، وقد كان طبيب الباب الخاص، ومع هذا فقد اتهم بالسحر والزندقة ودفع إلى رجال التفتيش.

* * *

في هذا القدر من الاشارة إلى الذين ذهبوا في سبيل عقائدهم، ومذاهبهم، مقنع، ولو انبسط المجال لأتيت على ذكر غيرهم من العلماء اليونانيين أشباه سقراط، وأرسطو طاليس، ومن علماء العرب أمثال ابن سينا وغيره، ووصفت مالاقوه في حياتهم من أليم العذاب في بث أفكارهم، وأحاديثهم، وماذكرته إنما هو يسير من كثير وغيض من فيض... ولو ضعضع التعذيب أحوال العلماء المتقدمين، وثنى عزائمهم عن تتبع العلم والتنقيب عن أسراره لما وصل العلم إلى ما وصل إليه اليوم، ولظل البشر في ظلمات بعضها فوق بعض.

وكذلك الأمم فإذا لم ترزق رجالاً لا تستريح قلوبهم ولاتسكن حركاتهم في دفع الغوائل عن أوطانهم، وتحمل كرائه الأمور وحوازب الخطوب في الاحتفاظ بمواريث أجدادهم استطالت عليها غيرها من الأمم التي اجتمعت لها أسباب القوة والعظمة، فكل صغير في الطبيعة فهو يأكل ما هو أقل منه، وقد جعل الله بعض الأمم حياة لبعض، وبعضها موتا لبعض.

لما استطار شرار الحرب، ظهرت فتاة فرنسية اسمها لويزدي بيتيني، وكانت في مدينة ليل، فاستولى الألمان على المدينة سنة ١٩١٤، فوقع في خلد الآنسة لويز الفرار إلى إنكلترا.فتمكنت من السفر عن طريق بلجيكا، فهولندة. فانكترا وفي فولكستون (مرفأ انكليزي على المانش) كان الانكليز يشددون على القادمين من بلاد القاع في تفتيش ثيابهم ويسألونهم مسائل شتى، فلما سألوا الآنسة لويز دي بيتيني أجابت باللغة الأنكليزية، ووصفت جيش الألمان، وأحوال رجاله أتم وصف حتى عجب منها

الانكليز، ودهشوا لها. وهي من بيت عريق في الشرف، وتعرف أربع لغات، واللغة اللاتينية، وتميل إلى العلوم والرياضيات، وقد أتمت علومها في انكلترا، وعاشت في إيطاليا وبولونيا.

طلب إليها أحد قواد الجيش البريطاني أن تخدم في الجيش، وتذهب إلى ليل التي يحتلها الألمان وتأتيهم بأخبار العدو، فترددت في الأمر رهبة منها ثم شاورت أمها في ذلك فصحت في خاتمة الأمر عزيمتها على خدمة بلادها. فدخلت سنة ١٩١٥ مدينة ليل، وأقامت بدارها القديمة، واجتمعت إلى فريق من أعيان البلد ووجوهها، وكان العمل الذي انتدبت له تمهيد السبيل إلى الأسرى الفرنسيين الذي يرغبون في الفرار إلى انكلترا.

لا تكاد تحضرني عبارة لتصوير ما اعترض هذه الفتاة من العوارض في سبيل أمرها، فقد كانت تأتي بالأخبار من بلاد الألمان مع شدة حرصهم على أسرار الجيش، فلم تترك ذريعة إلا تذرعت بها... فتارة كانت في زي بائعة، وطوراً في بزة فلاحة، وآونة في هيئة خادمة، ولم تترك خدعة إلا لجأت إليها.

وفي منتهى الأمر قبض عليها، وكتب عليها الموت فبدل عقابها بالسجن، فجيء بها إلى ألمانية، فماتت، ولما هدأت الحرب وجاء الانكليز إلى حدود الران أخرجوا لويز دي بيتيني من قبرها، وأتوا بها إلى فرنسا في موكب فخم مشى فيه أركان الحرب ومعهم جندي يحمل لها كل أوسمتها، فاستقبلها قومها في ليل استقبالاً رائعاً، ودفنوها في مدينتها.

ومهما دامت ذكرى الحرب فإن قبرها سيزدحم عليه الزوار وترف عليه الأزاهير.

* * *

ماأصدق ما قاله ميرابو: التضحية ثمن الحرية!

**جريدة المفيد في الاثنين ٧ نيسان سنة ١٩٢٤**

# لكل دولة آفة

**آفة روسيا:** لكل دولة آفة تنزل برحابها فتكون السبب في اختلال نظامها وتراجع عمرانها، فإذا سلمت الدولة من الآفات تمهد لها المجاز إلى ترتيب أمورها واستبحار عمرانها وتحصين مركزها، فقد نزلت بفرنسا آفة الكنيسة... وبألمانيا آفة الاشتراكيين... وبالنمسا آفة الفزع من الانقسام... وبإيطاليا آفة الفقر، ولكن مصيبة روسيا أعظم المصائب لما ابتليت به من فساد تربيتها واستبداد حكومتها وانبساط سلطانها فقعدت بها بلاياها عن بلوغ الكمال على التدريج.

أشار روسو في كتابه «الميثاق الاجتماعي» إلى ما ينبغي مراعاته من الأحوال في تهذيب الشعب وتصدى لإيضاح ما وقع فيه مصلح روسيا الملك بطرس من المغالط في هذا الأمر فكان من جملة كلامه:

«لا بد للولاة من أن يتلبثوا في حمل الرعية على قبول القوانين ريثما يستبين لهم اختمار العقول، غير أن استحكام العقول لا يتيسر عرفانه في كل وقت...وإذا أخطأت الفراسة في هذا الوجه فسد العمل».

إن من الأمم من تصلح للتهذيب في حدثان نشأتها، ومنها من لا تصلح لذلك بعد عشرة قرون فإن الأمة الروسية قلما يتكامل تأديبها لآن الذين شرعوا في إصلاحها أبكروا إليها في هذا الأمر... فالملك بطرس قد برع في التقليد والتحدي، ولكنه لم يكن من أهل الابداع والانشاء.

وإذا ظهر الصلاح في بعض أعماله فإنه لم يظهر في جملتها، رأى أن أمته كانت من البرابرة... إلا أنه لم ير أنها لم تبلغ أشدها لأجل التأديب... أراد أن يمدن البلاد لما كان ينبغي له أن يدرب أهلها على أساليب الحروب، وأحب أن يجعل من رجالها رجالاً يشابهون الألمانيين والانكليز في أوضاعهم لما كان يجب عليه أن يعمد لتخريجهم في المنازع الروسية فمنع رعيته عن إدراك ما تندر على إدراكه باقناعه إياها أنها قد أحرزت ما لم تحرزه في الحقيقة.

هذا ما أعان أصحاب الأمر النافذ في روسيا على الاندفاع في الاستبداد... فإنهم لما رأوا الأمة وما هي عليه من التخلف عن الحضارة والتقلب في الجهل سولت لهم أنفسهم أن يبالغوا في الظلم للرعية والاستطالة على العامة فذهبوا في استصفاء الأموال والعبث بالحقوق كل مذهب من غير أن يعملوا الروية في تهذيب الناس على سبيل الصواب وتسديد أحوالهم حتى ساءت سيرتهم وعظمت بليتهم، فانطوت القلوب على بغضهم وتناجت الجماعات بالافراط في عقوبتهم، فأمكنتهم يومنا هذا مناهز الفرصة فأقاموا على تسريب البعوث في مقارعة الطبقات العالية والنيل من أعراضهم وأخذوا يجاهرون بالمجانبة لكل نظام والاطراح لكل مذهب ويبثون في طوائف الأمة مبادئ التساوي في الدرجات منبعثين في الاستبسال لما يختلج في غوامض صدورهم من كوامن الإحن والضغائن إلا أنهم تجاوزوا المقدار في ثورتهم حتى عادوا وليس إلى كبح جماحهم من سبيل، ووقعت روسيا في مأزق لا مخلص لها منه.

وليس الاستبداد وحده بالذي نزل بحكومة روسيا من الآفات فألقت برجالها في المواضع المجحفة فإنه قد أصيبت بمصيبة ثانية وهي امتداد سلطانها.

قال روسو:«في الميثاق الاجتماعي» فيما يتعلق بهذا الأمر كلما ترامت أطراف المملكة تعذر على رجالها النظر في شؤونها وضعفت قوتهم في استنهاض الرعية للطاعة، وردع الناس عن التعدي بعضهم على بعض، وإصلاح العادات الفاسدة وتلافي ما يعرض في أقاصي الدولة من المشاغبات والفن وقلة محبة الرعية لحكامها الذين لا تراهم، ولوطنها الذي نزل منها بمنزلة العالم كله، ولأهل البلاد الذي تحسبهم غرباء، فضلاً عن أن ما تضعه الدولة من القوانين لا يلائم الأقاليم على السواء لتباين العادات فيها واختلاف الهواء.

فليس الأصل في الممالك أن تكون مخصبة التربة منفسخة الآفاق، وإنما الأصل فيها أن تكون ثابتة الدعائم سليمة من الآفات.

وقد وجدنا أن بعض الحكومات لا يقوم سلطانها إلا بالاستكثار من الفتوح، إلا أنها وإن رأت في ذلك ما تغتبط به فلا مندوحة لها عن أن تلقي في جانب العظمة مصرع الحتف وكامن الانحطاط.

فإذا أفاضت حكومة روسيا المعدلة في الرعية، وجعلت بلادها ولايات صغيرة، ووضعت لها قوانين تطابق مصالح أهلها فقد خلصت من الشرور وإن استمرت على حالها انتقض عمرانها بتواصل الثورات.

والأمة الروسية إذا أرادت أن تعمل على ثورة فإنها تجد الثورة أسرع لرجالها من الماء إلى الحدود ومن النار إلى يابس العود.

**جريدة المقتبس ٢ شباط سنة ١٩١٩**

# هواجس

يقارف الجرائم السياسية في اليابان طائفة من الوطنيين أصحاب أخلاق طيبة، وهم من المستعصمين بقديم تقاليدهم الذين أخذوا المواثيق على أنفسهم أن يجتاحوا كل وزير يحالف الأجانب على حين لايطابق هذا التحالف مصالح الرعية.

ومن أخلاق اليابان أن جماهير الشعب في آفاق ديارهم يعبدون رجال المقترفات السياسية عبادة يذهبون فيها كل مذهب، ففي سنة ١٨٨٩ تعرض نيشينوبونتارو لوزير من الوزراء اسمه موري، فقتله وأخنى عليه، فقبضت جماعة الشركة على القاتل وفرقوا بينه وبين حياته، فنشأت لنيشينو من أجل ذلك شهرة استفاضت في طبقات الناس عامة، وكان يزور مدفنه أفواج من الأمة ويجعلون عليه الأزاهير والرياحين حتى أصبح قبره على تراخي الأيام بمنزلة بيت حرام يحج إليها الوطنيون ويعلقون عليه أماديح صاحبه فأذاعت الحكومة سنة ١٨٩١ منشوراً رسمت للناس فيه أن يقلعوا عن هذه المظاهر وأشباهها فلم يرتسموا ذلك و لم يبدل المنشور شيئاً من طبائع الشعب وأخلاقه، وظل الناس مثابرين على طرائقهم.

* * *

لم يمدح أحد خلال الحرب بمثل ما مدح به كليمنصو... فقد خالط حبُّه قلوب الفرنسيس بأجمعهم، وكان السر في إقبال القوم عليه بأفئدتهم ماجرى على يده من الاهتمام بمصالح الرعية.

وكان لهيئته وأخلاقه وشدة عزمه وكبر سنّه، وحدة لسانه سلطان على النفوس.

وقد زل في ماضيه زلات بيد أن الناس لم يواخذوه بذنبه لِما أصلح من فاسده، وقوّم من معوجه، وبلغ من تعلقهم بأهدابه أن لقبوه (أبا النصر).

أتى على هذه الحال عامان ثم تحولت الرياسة عن كليمنصو فلم يكن إلا كلمح البصر حتى انتزع الناس من صدورهم محبته، فكفروا به بعد إيمانهم،وقاطعه من كان يواصله ولم يبق من حزبه إلا الآحاد فعادت حسناته سيئات واندفع القوم في الغض منه كل مندفع، ونقموا من النسر، القشعم لتهاونه بنصيحة الناصحين واستمساكه باستبداد المستبدين وعلى هذا السبيل أصبح الأمين خائناً.

رحم الله القطامي الذي خبر أخلاق البشر فقال:

**والناس من يلق خيراً قائلون له**

**ما يشتهي ولأم المخطئ الهَبَلُ**

* * *

نشأت في الحديث طائفة من الكتاب والشعراء خرجوا في كتاباتهم عن المألوف من كلام العرب وزعموا أن أساليب الأدباء في الجاهلية والاسلام لا تصلح لهذا العصر، فهم إذا أفصحوا عما يهجس في صدورهم من الهواجس لم يرجعوا إلى قديم الكلام، ولا انتخبوا منه ما يحسن منتخبه، ولذلك فإنك تجد من منظومهم ومنثورهم شيئاً من العجمة تفسد عليهم جملة من محاسن معانيهم.

ولو انصرفنا إلى أدباء الغرب لاستبان لنا أنهم يحرصون على تليد أساليبهم ويتنافسون في استعمالها، والحجة على ذلك ما جاء في مقال أنشأه أناتول فرانس بحث فيه عن لغة لافونتين فقال في جملة ما قال:

كان لافونتين يحب القديم من الأساليب فإذا ظفر بكلمة قديمة تدل على معنى مستحسن استخرجها من مكمنها وانتهز فرصة لادماجها في شعره، وكان يقرأ الروايات القديمة والحديثة على السواء ويعلم كيف يختار الكلام.

وأصل الأمر في الكتابة انتخاب الكلام.

**جريدة المقتبس ٣٠ تشرين الثاني ١٩٢١**

# يا فرعون من فرعنك

حدثني من لا يتزيد في حديثه قال:

«لجأت شركة الكهرباء في تونس إلى الاستبداد، واشتطت في معاملاتها على نحو ما تفعله شركة الكهرباء في دمشق فأحبت أن تعامل أهل تونس كما تعامل الذئاب ضعاف الغنم فزادت في أجرة الركوب والاستصباح، فاجتمع شبان من الطبقة المستنيرة وقد اضطربت خواطرهم من أجل ذلك كل مضطرب، وأقسموا الإيمان المغلظة أن يقاطعوا الشركة وبروا في أيمانهم، فذهبت مذهبهم الطبقات العامة وزهدت في ضياء الكهرباء ثم اقتدت بهم طبقة الأغنياء حتى صار أهل تونس كلهم يداً واحدة على الشركة، وبنى على أصولهم الأجانب أنفسهم فقاطعوا الشركة، فلما رأت هذه تحزب الناس عليها خشيت العاقبة فخفضت لهم جناح الذل وعادت إلى مياسرتهم فحطت من أجرة الضياء الكهربائي وعلى هذه الصورة خلص أهل تونس من أذى الشركة واستبدادها».

هذا أرشد ما يسلكه الناس من المذاهب في تأديب من يعبث بحقوقهم ويتطاول لاستنزاف أموالهم، واستصغار أقدارهم، ولو أغضوا على ضياع حقوقهم لاستطال عليهم رجال الاستبداد ومن لم يكن ذئباً أكلته الذئاب.

ما قتل أصحاب رؤوس الأموال في أوروبا وأميركا إلا تضافر العمال عليهم، ولا يقتل المستبدين من رجال الشركات إلا تعاون الناس عليهم

ومقاطعتهم لهم ريثما يعودوا إلى الرشد في معاملاتهم، وقد دلت التجارب على أن اجتماع الكلمة أحسن ما يتوسل به الناس إلى التقويم من اعوجاج المعوجين والقضاء على استبداد المستبدين، وربما بلغ القوم بتعاطفهم وثباتهم مالا يبلغونه بالجيوش.

لو سكت أهل تونس عن استبداد شركة الكهرباء، ولو أنهم لم يعقدوا النية على مقاطعتها لأرهقتهم طغياناً وبالغت في هذا الارهاق.

أين أهل تونس من أهل دمشق!

هذه شركة الكهرباء في بلدنا فقد ذهبت في الاستبداد كل مذهب، و لم تجد من يتصدى لتأديبها حتى أنها جعلت في هذه السنة أجرة الشمعة الكهربائية قرشين وزادت ثلاثين قرشاً في كل مائة قرش ونحن عن هذا الشطط نائمون... ولحكم الشركة منقادون.

لو استغنينا عن ضياء الكهرباء مقدار أسبوع ومشينا إلى المهاجرين والميدان على أقدامنا قليلاً من الأيام للجأت الشركة إلى الملاينة والمساهلة وحطت من الأجرة التي قررتها ولكن الأمة التي لا عهد لها باجتماع الكلمة والثبات خليقة أن يستطيل عليها كل مستطيل... وأن يطمع في حقوقها كل طامع.

الذنب ذنبنا، والشركة بريئة لأنها رأت جواً خالياً فنصبت حبائلها رجالاً يصبرون على الأذى فأرادت بهم الغوائل...والبشر مهما بلغوا من العلوم والفنون لا بد لهم من أن يبقى في طباعهم شيء من الاستطالة والظلم.

كيف نبلغ مبلغ أهل تونس ونحن على مانشأنا عليه من التخاذل في كل موطن ومشهد! اهتمامنا بماكلنا أبلغ من اهتمامنا بمصالحنا على حقوقنا.

سعرت بلدية دمشق زمن الحرب الخضرة لأن البقالين أغلوا أسعارها فامتنع هؤلاء عن إحضار الخضر، فلم يستطع بعض الطبقات الصبر على شظف العيش فكان الواحد منهم يحمل سلته ويذهب إلى الباب الشرقي أو إلى طريق الربوة ويغالي بالخضر، ولو ثبتنا في ذلك الحين على مقاطعة البقالين ثلاثة أيام لجاؤونا بباذنجانهم وباعونا إياه بثمن بخس وهم فيه زاهدون.

زيدي إيتها الشركة في استبدادك، وبالغي في ضلالك فقد لاقيت بقعة من الأرض لا ينبت فيها اجتماع الكلمة... ولا عهد لأهلها بالتناصر والذئب إذا خلا له الجو وثب.

اللهم حبب إلينا فضيلة التناصر والاتحاد...كما حببت إلينا أكل الباذنجان...وعودنا احتمال جهد الثبات كما عودتنا حمل السلة ومكابدة الجهد في شراء الباذنجان.

**جريدة المقتبس ٣ شباط ١٩٢١**

# المجالس الثلاثة

ضمتني خلال هذه الأيام ثلاثة مجالس خطرت ببالي في كل واحد منها خواطر لا مندوحة عن إثباتها في هذا المقال:

أما المجلس الأول فقد جمع طائفة من أدباء دمشق، احتفلوا في دار الحقوق، وجرى لهم كلام في محتفلهم عن رجل من رجال الأدب أبّنوه ورثوه إجلالاً لصناعته الشريفة.

والذي سنح لي في هذا المجلس ودمعت أجفاني من أجله أن هؤلاء الأدباء قد دعوا إلى مجتمعهم نيفاً ومائتي شخص ممن توسموا فيهم ميلاً إلى الادب لم يحضر منهم إلا عدد يسير، وقد ألقى بعض المتخلفين شيئاً من معاذيرهم.

أشربت قلوب الناس في آفاقنا هوى الظواهر من الأمور دون البواطن وعلقت بحواشي صدورهم محبة السفاسف دون المعالي، فلو كان في مجلس الأدباء شيء من المآكل والمشارب أو كان أصحابه من أهل المنازل الرفيعة الذين يتملق القوم لهم ويتزلفون إليهم طمعاً في استجلاب محبوب ودفع مكروه لبادرت إليه جماعات لا يحصى عديدهم ولا ينادى وليدهم.

إني لا أرى في ذلك إلا أمراً واحداً وهو أن الأمة التي تزهد طبقتها في الأدب لخليقة أن تطويها الليالي دون أن ترحب بها أرض، أو تستشر بها سماء.

* * *

وأما المجلس الثاني فقد احتشد فيه فريق من القوم خطب فيهم الاستاذ الأب جوسن في مدرسة الآباء العازريين وبحث في خطبته عن حضارة العرب في العلا ومدائن صالح وذكر شيئاً من حضارة بني لحيان في العلا ظفر في سياحته سنة ١٩٠٧.

خفيت علينا آثارنا فنهضت جماعة من الأجانب ودأبوا في سلوك الفجاج واقتحام المتالف رغبة في استخراج الكوامن من رسومنا، حتى أصبحنا عالة عليهم في كل شأن من شؤوننا... ولولا الغرب لضاع كثير من كتبنا وحضارتنا، وإذا ظللنا سادرين في جهالتنا الجهلاء، وضلالتنا العمياء لا نلبث أن يأتي علينا حين من الدهر نذهب فيه إلى أوروبا لاقتباس لغتنا وسؤال علمائها عن آثارنا ورسومنا.

اللهم إذا كتبت علينا هذا الأمر فاخسف بنا الأرض قبل أن نشاهده!

* * *

وأما المجلس الثالث فقد صادفت فيه الأكثر من أساتذة المدارس، وعدداً قليلاً من الأدباء ـ ما أشبه هذا المجلس بالأول ـ وبينهم الأستاذ المغربي يفسر لهم في المجمع العلمي العربي معلقة طرفة بن العبد وما تضمنته من حكمة وأدب.

وقد أبقت في نفسي محاضرة الاستاذ أثراً صالحاً، فإنه حبب إليَّ الاستئناس بالقدماء من شعرائنا وكتابنا في الجاهلية والاسلام الذين كثيراً ما قاطعناهم مدعين أن أساليبهم لا تصلح في هذا الدهر... وأن كلامهم غامض مبهم.

إننا نحاول أن تكون لنا ملكة في الأدب دون تقليب النظر في المنظوم والمنثور من كلام العرب... وما مثلنا في ذلك إلا كمثل الطائر الذي يريد أن يحلق في أجواء الفضاء ولا جناح له.

كلام العرب هو المادة لنا في الكتابة، ولا بد لكل رجل يريد الرسوخ في الأدب من الرجوع إليه حتى يجد السبيل إلى الإفصاح عما يجول في خواطره، ويهجس في ضمائره.

* * *

وتلخيص المقال أن زهدنا في الأدب مدرجة إلى الانحطاط وإهمالنا للتنقيب عن آثارنا مسقطة لنا من أعين الأجانب والاستغناء عن كتب الأقدمين مفسدة للغتنا.

**جريدة المقتبس في ٢٠ نيسان ١٩٢١**

# البواقي والمواضي

في كتب الأدب أن المعري سُئل عن أبي تمام والبحتري والمتنبي، فقال: «أبو تمام والمتنبي حكيمان، والشاعر البحتري».

وسواء أصح هذا الرأي أم لم يصح لا أتصدى في هذا المقال للموازنة بين هؤلاء الشعراء، إنما بوقع نظري عرضاً في مطالعتي لشعر أبي عبادة على بيتٍ يتضمن حكمة من روائع الحكم، وجدت طائفة من كتاب الفرنسيس في هذا العصر يتفرغون لامضاء قولهم في هذه الحكمة في بيت البحتري، فهذا هو:

**والبواقي من الليالي وإن خا**

**لفن شيئاً فمشبهات المواضي**

أراد البحتري أن يصور لك ماضي البشر، وحاضرهم، ومستقبلهم في صور متشابهات، فكأنما قال:

«إن حياة البشر في بدء الخليقة مشبهة لحياتهم في خاتمها»...

وإن توسعت في الشرح استطعت أن تقول:

«أخلاق البشر وهم في بؤس البداوة وخشونتها مماثلة لأخلاقهم وهم في نعيم الحضارة ورقتها، وما اقتبسه الناس من علم وأنشأوه من فن لم يعدل من شيمهم، ولا قوّم من اعوجاجهم، وعلى ما به ستكون حياة البشر واحدة، فالبواقي من الليالي مشبهات للمواضي».

قال الدكتور غستاف لوبون:

«الحاضر يشتمل على الآتي، فمن عرف الحاضر سهلت عليه معرفة الآتي».

يتراءى لك في أضعاف هذا الكلام شيء من الشؤم... لأن المرء إذا تحققت عنده وقفة العيش، ووحدة الحياة أخذ الهم منه مأخذه، فهو يرغب في انتقال أخلاق البشر من طور حسن إلى طور أحسن،ويود لو كان للحضارة أثر بليغ في تهذيب الأخلاق وصقل الطبائع، وإن لم يكن في الحقيقة شيء من ذلك لأن الحضارة بنت العلم، وبين العلم والأخلاق شقة مترامية الأطراف فلا تختلف حياة البشر مادام العلم لا يؤثر في الأخلاق، فالآتي شبيه الماضي.

قال أحد كتاب الفرنسيس في مقال له:

«ينزع الرجل إلى أن يكون في الآتي غير ما كان في الماضي، فهو يصيخ مع شيء من الجذل لكل الذين يحدثونه بتبديل وتغيير، وبانتقال من طور إلى طور، ومن حال إلى حال، إلا أنه لو كان يخطر بباله أن الحوادث التي تقلب وجه الحياة نادرة، لو كان يقع في خلده أن حياةٍ معظم البشر متشابهة الصور لما صعب عليه أن يتصور في ذهنه مستقبلاً يشبه الحاضر كما يشبه الأخ أخاه» أي نتيجة تستنبطها من هذا الكلام؟ إنك ولا شك تبادر إلى القول:

إن الشر من مبدأ الخليقة حتى يومنا هذا في صورة متشابهة، وعلى أنماط متماثلة، فكأنما الحضارة التي توارثها الخلق، وزادوا في أوضاعها، وتبسطوا في مذاهبها، لم تهذب شيئاً من طباعهم، ولا أضاءت من ظلماتهم في خلال السنين التي تعاقبت على انتقال الإنسان من أفق الحيوان إلى أفق البشر.

* * *

رجعت إلى دفتري، فوقعت يدي على صحيفة «الطان» من أواخر سنة ١٩٢٣ وجدت مقالاً عنوانه «هل نحن ممدنون» وهذه خلاصة هذا المقال الطيب:

«جهز العالم بكل ما يتمم نقصه من الأدوات والآلات، فقد أنشأ البشر المعامل، والمرافئ ودور الحرب، والمحاط، والملاهي، وبنوا الدور الشامخة، وجروا العجلات، ووضعوا المدافع، وقذفوا القذائف التي من شأنها استهلاكهم، ومدنوا المدائن، ومصروا الأمصار، ولكنهم ماذا عملوا من أجل نموهم وسعادتهم... فقد ضاعف البشر سلاحهم المبيد... فهل سكنوا ثورة الناس في استعمال هذا السلاح، فما هي النسبة بين البرق اللاسلكي وبين العدل، أم ما هي النسبة بين معارض الصور الرجراجة (السينما) وبين الفضيلة، وبين الصناعة و الجمال، فهل قلل المسدس من مقادير الجرائم؟ لا شك في أن الإنسانية أنشأت لها داراً جميلة ولكنها نسيت مدخنة هذه الدار».

لقد وصل الاستاذ غستاف لوبون في كتابه «اختلال التوازن العالمي» إلى هذه النتيجة التي أذكرها بحروفها وهي:

«لئن سمت مدارك البشر، وعظمت مقادير عقولهم وأحلامهم في الأحقاب الغابرة فإنك لا تجد لعواطفهم تبديلاً... فما استحكم فيهم في قديم الدهر من الحب والحسد والبغضاء مجانس لِما استحكم فيهم في حديث الدهر».

فإن ملاحظته هذه ملائمة للسؤال الذي لا أنفك أسأله وهذا هو:

هل نحن ممدنون؟ لأن هذه الملاحظة توضح لنا الاختلاف البليغ بين العقل وبين الأخلاق، فإن من طرائف الأدب العصري ــ الذي لا طريفة في فيه ـ أن يبحث الأديب في خفايا الرجل الممدن عن حقيقة الرجل الوحشي، ولا يصعب علينا أن نبين في هذا الشأن أن الفن مازال يعمل

عملاً مخالفاً لما يعمله العلم، فالعلم يلفتنا إلى الآتي، والفن يرجع بنا إلى الماضي... ومن خصائص التآليف في هذا اليوم اشتمالها على الكلام على الغريزة الخالدة الوحشية، فلو كان العقل يقود حقيقة هذا الحيوان الذي عرفه الفيلسوف اليوناني هذا التعريف: «حيوان عاقل» لتمهد لنا السبيل إلى الاستضاءة بضياء مدنيتنا، فالذي يقود البشر في الحقيقة إنما هو عواطفهم وأهواؤهم ومعتقداتهم، وأوهامهم، فإن عمل الحواس فينا أعظم من عمل العقل، وهذا السبب الذي من أجله نجد جماعة من نوابغ البشر كالفيلسوف باكون في حطة من الأخلاق، ونرى رجالاً هذبهم العلم قد أحرقوا المكتبات في المعترك الكبير الأخير.

لقد أنشأ الاختلاف الواقع بين العواطف والعقل في نفوس بعض الناس شيئاً من القلق والاضطراب حتى تساءل الدكتور غستاف لوبون:

«ماذا يحدث إذا استمر العقل على النمو وظلت العواطف ثابتة لا تتغير!»

أجل لقد تساءل عن مصير البشر ماذا يحدث إذا كان العقل لا ينفك يهدي الناس المشربين محبة الحروب سبيلاً إلى استنباط أدوات الهدم والتخريب... حتى إن أعظم العواصم يمكن هدمها في طرفة عين.

لا شك في أن في ذلك خطباً جليلاً يتوقف عليه مستقبل البشر بأجمعه.

من عادتنا أن نبجل العلماء ولا نخطئ في ذلك... ولكن فلنعترف أنهم لم يعملوا حتى اليوم عملاً عظيماً، فقد اعتنوا بالأشكال المصورة على أوراقهم، واهتموا بحركات النجوم التي تدور في السماء أو بالأجرام التي تسقط على الأرض... وقد شغفهم النظر في الضياء والكهرباء وتراكيب الكيمياء والطبيعيات والرياضيات... وعلى الجملة فقد درسوا كل شيء في العالم ماخلا الرجل فلم يدرسوه، كشفوا لنا الغطاء عن

أسرار السماء... ولكنهم لم يكشفوا لنا الغطاء عن أسرار القلب، فقد شرعوا في دراسة ما هو سهل وبسيط وأرجأوا النظر فيما هو صعب ومركب أي أنهم أرجأوا النظر في سيرة البشر فإن الذي يسير البشر إنما هو الأديان وعلوم الأخلاق و لم يسيرهم العلم... لأن علم الرجل أي علم النفس لم ينشأ إلا من قريب.

فالحضارة لا تستند إلا إلى المكتشفات العلمية... إنها تنشأ من تطبيق العلم على حاجات البشر وحضارتنا لم تستطع أن تستخدم إلا العلم الذي تعلمناه أي علم الطبيعة الذي وصفته. إن حضارتنا بنت المهندسين والصُّناع لقد استخدمت قوانين الطبيعة والكيمياء ولكنها ماذا فعلت في قوانين العواطف والأهواء؟

قدر المهندسون على بناء الآلات والمعامل فهل قدر رجال الدول على إنشاء التعاهد على السلم؟

ماذا تقول في المهندس الذي بنى جسراً ثم تهدم جسره؟ ماذا تقول في رجال السياسة الذي ينشؤون آثاراً فتتلاشى هذه الآثار؟

فالفريق الأول لديهم علم ثابت... والفريق الآخر يخبط في الأمور خبطاً.

وإن حياة المدن والأمم تتعلق بالسياسة، ولا بد في السياسة من وجود الأحزاب فهل تجد مذاهب في الحكمة الطبيعية والكيمياء والميكانيك وما شابه ذلك فمعنى ذلك، أنه ليس في أفكارنا السياسة إلا عواطف وأميال وتفضيل... فليتحقق عندنا أنه لو استفاض عندنا علم النفس كما استفاض علم الطبيعة لما كان من الصعب تهدئة أوربا والعالم...كما أنه ليس من الصعب عمل محرك من غاز، ولما أمكن الجدال في مبادئ سياساتنا وأخلاقنا أكثر من الجدال في مبادئ توازن الاجرام، لو كان

عندنا كل ذلك لكان تسيير الشعب مشبهاً لتسيير آلة من الآلات، فالبشرية لم تعمل بعد بحكمة سقراط القائل للمرء:

(اعرف نفسك) إن البشر لا يعرفون أنفسهم، ولذلك فإنهم ينجحون كل النجاح في كل مالا يتعلق بهم ويسيرون سيرة الصبيان فيما يتعلق بهم. كلا لا يمكننا أن نقول إننا ممدَّنون حتى ولو بعض التمدن، لأن الذي ينقصنا إنما هو الجوهر.

فإذا واظبنا على مخادعة أنفسنا بمبلغ حضارتنا فإننا نعرض البشر لأجسم الخطوب أي للحروب والثورات والأزمات الاقتصادية والخلقية أجل أننا نعرضهم لشيء من الاضطراب العصبي وربما قدناهم إلى الموت على نحو ما يعرض لأنواع الحيوانات التي لا تلائم بيئتها.

فلنعرض عن زخرف الصناعة التي لا تؤدي في أكثر الأحايين إلا إلى تبديل حاجات طبيعية بحاجات صنعية،ولنحتفظ بذوق الحياة المعنوية... أجل لنحتفظ بالمثل الأعلى فهما اللذان يستطيعان أن يسدا مسد نقصان العلم والطريقة.

ولنحرص خاصة في جملة ما نحرص من تقاليد الشعوب القديمة المهذبة على الميراث الخلقي العزيز الذي أصلحته تجاريب الدهور حتى أصبح هذا الميراث في عصرنا الميكانيكي علم البشر الوحيد، فإن مستقبل النوع الذي يتعرض لكثير من الأخطار المادية والمعنوية متوقف على ذلك.

فلننظر في أعماق نفوسنا، وهنا نجد شيئاً من هذه الحضارة الحقيقة التي تقصينا عن كل أدوات هذا العصر.

**جريدة الميزان العدد ٦٥ في ٢٥ أيار ١٩٢٦**

# أشباح الموتى

«إني لآنس بالوحشة... وأستريح إلى الوحدة... ويطمئن قلبي إلى هذا الوادي الموحش. فأتذكر من عهدت، فكأني أخاطب أعيانهم، وأتراءى أشباحهم، وتتخيل لي أندية رجالهم، وملاعب ولدانهم، ومندى أمواهم.

والله يا ابن أخي لقد رأيت هذا الوادي بشع اللديدين بأهل أدواح وقباب، ونعم كالهضاب، وخيل كالذئاب، وفتيان كالرماح، يبارون الرياح، ويحمون الصباح فأحال عليهم الجلاء فما نعرف، فأصبحت الآثار دارسة، والمحال طامسة، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به، ارم بعينك في هذا الملأ المتباطن، ألا ترى تلك الأجداث، ما انطوت إلا على أخ أو ابن أخ، أو عم وابن عم، فأصبحوا قد ألمأت عليهم الأرض وأنا أترقب ما غالهم!».

* * *

هذا ما ثبت في الذهن، وعلق بالبال من حديث عجوز في أمالي القالي، كأنها نعامة راخم، قد انفردت بواد خلاء لا أنيس به، والحلة منها قريب، فلم تنضم إلى جنابهم ولا أنست بهم، فما الذي حبب الوحدة إلى هذه الاعرابية، حتى استرسلت إلى أهل القبور، وانقبضت عن سكان المضارب.

هل كان يقع في خلدها أن للموتى سلطاناً على الأحياء لا تذهب رسومه سجيس الليالي؟

هل كان يخطر ببالها أن لهم آثاراً في الأعقاب تتراخى طوال العصور والدهور، لا يمحوها الليل والنهار؟ وأن تعاقبا؟

هل كان يهجس في صدرها أن الأنسان ابن آبائه وأجداده، لحمه من لحمهم، ودمه من دمهم، وقوله من أقوالهم، وفعله من أفعالهم، لايغيره العلم والتربية والمباءة إلا قليلاً، يخضع لسلطانهم وإن درجوا، ويذعن لمشيئتهم وإن عصف الدهر بهم؟

هل كانت تعلم هذا كله حتى وفت بعهود الموتى و لم تغدر، ووصلتهم و لم تهجر؟!

* * *

أجل إن للموتى سلطاناً على الأحياء ينبسط في الأرض على تراخي الأيام وتعاقب السنين والأعوام. لقد كان علماء النفس في متقادم الأحقاب يقتصرون على البحث عن أرواح الأحياء، ويغفلون الكلام عن الموتى وما لهم من منبسط السلطان على الأعقاب، ولكنهم اليوم طفقوا يشبعون القول في أرواح الموتى، ويفيضون في بيان مالهم من الآثار في ذريتهم، ومن ظن أن تأثير الموتى لا يتجاوز المقابر فقد اشتط في الأظانين.

إن للأحياء آثاراً تمتد بامتداد أعمارهم، ولكن للموتى من الرسوم أو الآثار ما يبقى على مترادف العصور، فهم العلل والأسباب في مجامع أطوارنا، وأخلاقنا، ومذاهبنا وما ماثل ذلك، فإذا صدقنا في مقالنا، فمن أخلاقهم اقتبسنا الصدق، وإذا كذبنا فيه، فمنهم انتقل إلينا الكذب، إلى غير ذلك من محمود الشيم ومذمومها، ومستحسن الخلائق ومستقبحها، فلا إرادة لنا، ولا مشيئة، وإنما لارادتهم نخضع، ولمشيئتهم نذعن... وما يسميه علماء الاجتماع في هذا الدهر روح الأمة، فإنما مصدره الموتى الذين أضمرتهم الأرض، وألمأت عليهم، وكلما كان الموتى من أصل واحد، قويت روح الأمة، وعظمت شوكتها.

* * *

إن للموتى محافظة على مصالح أمتهم لا يلويهم عنها سلطان... وأظهر ما تستبين هذه المحافظة في الأيام التي يطمح فيها العدو إلى إفساد هذه المصالح، فلولا الموتى وآثارهم لم يغادر الفرنسيس دورهم وأهلهم سنة ١٩١٤، ولا نفروا إلى مواطن القتال زرافات ووحدانا، والاشتراكيون الذين هم أكره الخلق للحرب وأرغبهم عنها، ذهبوا إليها ولم يتذمم منهم متذمم، وما هذا إلا نتيجة من نتائج خضوع الأحياء للموتى.

قد يبلغ سلطان الموتى من العظمة مبلغاً لا يزحزحه عنه إلا سلطان موتى آخرين، وهذا ما يقع إذا صاهرت أمة إلى أمم مختلفة وشعوب متباينة، فإن أجزاء روح الأمة تتفكك بمصاهرتها في أمة ليست من جنسها ولا من أصلها.

فلولا جهل الاسبانيول بهذا الأمر لما أضاعوا الأمصار التي استعمرهم الله فيها، فإن تزوجهم بفتيات لسن من جنسهم ولا من أصلهم كان السبب في ذهاب مستعمراتهم وضياعها.

أما الإنكليز فإنهم لمحافظتهم على تقاليد موتاهم، وعواطفهم، وعاداتهم ومعتقداتهم لم ينشطوا إلى التزوج ببنات المستعمرات، فبقيت دماؤهم خالصة صافية، وأوضاعهم ثابتة راسخة، فملكوا البر والبحر، واحتلوا السهل والجبل.

يستنبط مما تقدم أن المذاهب السياسية قل ما يكون لها تأثير في حياة شعب من الشعوب، وإنما التأثير كل التأثير لأشباح الموتى الذين ذهبوا بين سمع الأرض وبصرها، ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد بحوادث التاريخ لتأييد هذا القول.

ارم بعينك إلى شعوب أميركا، فإنهم يجتمعون في نظام متشابه من السياسة،ولكنهم من أصول وفروع مختلفة.

انظر إلى أمريكا الشمالية، ثم انظر إلى أمريكا الجنوبية، يقيم الأنكلو ـ ساكسون بالأولى، وينزل الاسبانيول بالثانية وقد ما زجوا أهل البلاد وخالطوهم، لقد انسحب الاسبانيول على أذيال الانكلو ساكسون في أوضاعهم السياسية ففصلوا السلطات، وعينوا الوزراء، وأقاموا مجالس النواب، وأطلقوا الجرائد من القيود، ولكن الحكم المطلق لا يزال حكمهم على خلاف الأميركان.

يستنتج مما سبقت الاشارة إليه أن بين الشعوب المحافظة على ماضيها دهراً طويلاً وبين الشعوب التي لا تحرص على تقاليد موتاها فرقاً عظيماً، فقد تنشأ أمثال الثورات والانقلابات في الشعوب المزدهرة بماضيها، كما ينشأ أمثال ذلك في الشعوب غير الحريصة على الماضي، ولكن الماضي يغلب الحاضر، أي أن الموتى يتطاولون من وراء القبور فيتسلطون على الاحياء فلا تلبث هذه الانقلابات أن يضمحل سلطانها، وشاهدنا على ذلك الانكليز في انتخاباتهم الحديثة، فلم يمتد حكم العمال إلا قليلاً.

هذا ما قرره الدكتور غستاف لوبون في الكثير من تصانيفه وفصوله والتنقيب، فكأنما شعرت به عجوزنا بسليم فطرتها، وخالص طبعها، فلنبجل موتانا، فإن بيننا وبينهم من الأواصر مالا ينقضه ناقض على وجه الدهر.

**جريدة الميزان في ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٥.**